الرتب العلميّة في الدولة العليّة

لجناب الحسيب النسيب السيد محمّد الهادي بيرم

كل دولة متينة الاساس قويّة الدعائم تاسّس بنيانها على اصلين ثابتين وهما السيف والقلم اي القوة الحربيّة والقوة السياسيّة . وكان هذا شأن الممالك الاسلاميّة في زمن الدول العربيّة وكان كثير منها يجعل لهاتين السلطتين وزيرين خاصّين يسمى احدهما وزير السيف والآخر وزير القلم او الانشاء او التوقيع والاول يتولّى الاهتمام بالجيوش والجهاد وفتح الممالك ودفع الاعداء . والثاني ينظر في كل ما يتعلق بشؤون المملكة الداخليّة من اداريّة وسياسيّة وهو بمثابة وزير الداخليّة والخارجيّة الآن. ولم يزل احد وزراء الحكومة التونسيّة يلقّب بوزير القلم الى يومنا هذا الذي اندثرت فيه الحقائق وبقيت الرسوم تشبّثًا بما كان عليه الحال في زمن عزّ الدول القديمة وفخامتها

ولما جاءت الدولة العليّة العثمانيّة اقتفت آثار الدول التي سبقتها في تنظيم الملك وزادت عليه ما اقتضاهُ الزمان وترقي نوع الانسان في مدارج الحضارة .وقد حنظ فن التاريخ والجغرافيا مآثرها الغرّاء في فتح الممالك وجمع الامم المتفرقة تحت راية واحدة سعيًا وراء الغاية المطلوبة والضالّة المنشودة وهي توحيد الشعوب وتأليف القلوب الامر الذي طالما سعى اليه الملوك في كل زمان ومكان . غير ان الدولة العليّة لم تقتصر على ما عندها من السلاح والبأس للبلوغ الى هذه الغاية كما يتوهم مَنْ يقرأُ تاريخها الذي لم يُحفَظ فيه الاّ ذكر الحروب بل اعتمدت ايضًا على واسطة اخرى من اجلّ الوسائط الموصلة الى ارتقاء الامة في مراقي الفلاح والرفاه وهي نشر العلوم والفنون اعني قوّة القلم . ومن اراد ان يعلم ما كان للدولة العليّة من الشأن الخطير في هذا المضمار وما بذلتهُ من الوسائل لنشر لواء العرفان ومحو آثار الجهالة فما عليه الاّ ان يلتفت الى الرتب العلميّة التي فيها الى الآن فانها شاهدة بما لهذه الدولة من العناية في تعميم المعارف والحث على اكتسابها

وقد بدأت الدولة العليّة بذلك من اول نشأتها . وتاريخها وتاريخ المعارف فيها واحد حتى ان اول من لُقّب لقب باشا اثنان من العلماء في زمن السلطان عثمان الاول وهما العارف بالله مخلص باشا وابنهُ عاشق باشا . وتزوج السلطان عثمان ببنت عالم كبير من علماء عصره الصالحين الزاهدين وهو الشيخ اده بالي واولدها سلالتهُ الطاهرة . غير ان تنظيم المراتب العلميّة وتكثير المدارس وتعميم المعارف وسنّ القوانين لها لم يبتدئ حقيقةً

الاَّ في زمن السلطان اورخان وهو الدور الاول الذي دخلت فيهِ الدولة وعقبهُ دور ثانٍ في عصر السلطان مُحَمَّد الفاتح ثم دور ثالث في عصر السلطان سليمان القانوني وهو الترتيب المتبع في اصولهِ الكليَّة حتى الآن ولو طرأت عليهِ بعض الطوارىء التي قلبتهُ عن موضوعهِ الاصلي لاسباب مبسوطة بالاسهاب في تاريخ العلاَّمة جودت باشا

هذا وعلى ذكر لقب باشا نقول ان هذه اللفظة تركيَّة معناها الاخ الاكبر وهي تستعمل بهذا المعنى في بلاد الاناطول حتى الآن . وذهب بعض مؤرخي الافرنج ان معنى باشا رجل السلطان من كلمتي پاي شاه وحقق لهم هذا الزعم ما رأوهُ في مملكة الفرس قديماً وحديثاً من تلقيب الوزراء والمقرَّبين القاباً مشتقة من اسماء الاعضاء دلالة على شدة التقرب والالتصاق فقد كانوا يلقبون وزير الحربيَّة وقواد الجيش بأرجل السلطان ووزير المالية يد السلطان والولاة بعيون السلطان والسفراء بآذان السلطان والقضاة والحكام بألسنة السلطان. ولم يزل عندهم شيء من ذلك الى الآن كقولهم عضد السلطنة وما اشبه. غير انهُ فات اولئك المؤرخين ان عادة الترك غير عادة العجم لا سيما وان الترك يستعملون كلمة باشا بمعنى الاخ الاكبر لهذا العهد ولو استعملت بمعنى رجل السلطان لما رضي السلطان عثمان الغازي على ورعهِ وتقواهُ ان يطلقها على اثنين من أجلة علماء عصرهِ والاحاديث النبوية والآيات القرآنيَّة تأمر بتعظيم العلماء وتكريمهم وحاشا لهُ ان يلقب علماء الدين بالارجُل وملوك الفرس كانوا يلقبونهم قبل الاسلام بالالسنة . ويتضح من كل ما تقدم ان معنى كلمة باشا الحقيقي الاخ الاكبر. ولا يخفى ما في اطلاقها على العلماء من شدة العناية بهم عند تأسيس الدولة العثمانية وتشييد قوة القلم بهم لحفظ ما شيدهُ السيف فتتوفر لدى الدولة معدات القوتين اللتين لاقوام للممالك المنتظمة الاَّ بهما كليهما لان السيف مخراق لاعب اذا لم تثقف الحجة حدَّهُ . واذ قد تمهَّد ذلك نشرع في وصف الادوار الثلاثة المشار اليها

الدور الاول عصر اورخان

لا يخفى ان السلطان عثمان الغازي ترك ولدين اكبرهما علاء الدين وثانيهما اورخان. وادركت السلطان المنيَّة وهو في حصار بروسه (بورصة) وكان اورخان المتولي امر الجيش لان علاء الدين لم يكن يميل الى الحروب وتجشم المشاق بل كان عالماً صالحاً زاهداً مشغولاً بعبادة الخالق عن شؤون المخلوق فلما توفي والدهُ ابى ان يتولى الملك فابقاهُ لاخيهِ واشترط عليهِ اخوهُ ان يعضدهُ في تدبير الشؤون الداخليَّة وإحكام نظامها ليكونا

مظهرًا للاية الكريمة « واجعل لي وزيرًا من اهلي هارون اخي اشدد بهِ ازري واشركهُ في امري » فيتفرَّغ اورخان للجهاد وفتح الممالك . فتولَّى علاء الدين باشا الصدارة العظمى وهو اول من تولاها وتلقيبهُ بالباشا حجَّة لنا ايضًا على صحة التفسير الذي بسطناهُ آنفًا. ولما توفي علاء الدين باشا وتولَّى سليمان باشا بن اورخان الصدارة مكانهُ اطلق لقب باشا على الوزراء وكبار القواد على النحو المتعارف لهذا العهد

وفيما كان السلطان اورخان موجهًا همهُ الى الحروب وفتح القلاع والحصون كان اخوهُ علاء الدين باشا ينظم الشؤون الداخليَّة ويضرب السكة ويجعل لكل فرقة من الفرق المؤلفة منها قوة السلطنة العليَّة والاداريَّة والسياسيَّة والحربيَّة نظامًا خاصًّا وقانونًا مناسبًا ولبسًا مخصوصًا . ونُقل تخت الملك حينئذٍ من يكي شهر الى دار الامان (بروسه) فبنيت فيها المساجد والمدارس وانشئت المباني الفسيحة لسكنى الطلبة والمجاورين . وغنيٌّ عن البيان ان الطلبة يتلقون دروسهم في البلاد الاسلامية في المساجد فهي للعبادة وللتعليم معًا وقد اوقفت عليها الاوقاف الواسعة لهاتين الغايتين كما هو مصرَّح في شروطها. وبنيت المدارس في العاصمة القديمة يكي شهر ايضًا وفي غيرها من المدن التي فتحت في ذلك العصر واجريت الجرايات الواسعة على الطلبة والمدرسين لكي لا يشتغلوا بشيءٍ آخر عن الدرس والتنقيب في الكتب والدفاتر . وكان السلطان اورخان يقرِّب العلماء والصلحاء ويعظم قدرهم ويبالغ في اكرام ملاسنان باشا الايراني واكثر العطاء لارباب الطرق الصوفيَّة وبنى لهم الزوايا واماكن الذكر فكثرت الطرق في زمنهِ وكثر عدد المريدين . واقتدى بهِ بعض اهل زمانهِ في بناء المدارس وصاروا يتقربون اليهِ بها فقد نقل هامر في تاريخهِ ان السلطان اورخان وعد لاله جاهين وهو من كبار القوَّاد المقربين ان يهبهُ جميع الغنائم التي يغنمها في احدى الغزوات ثم تبيَّن ان الغنيمة شيءٌ كثير جدًّا وودَّ ان لا يعطيهُ اياها كلها واستفتى ملا تاج الدين الكردي في ذلك فافتى بانهُ لا يجوز الرجوع عن الهبة وعلم لاله جاهين ذلك فانفق كل ما اصابهُ من الغنيمة على انشاء المدرسة العالية ببروسه استجلابًا لرضاء السلطان . وجرى سلاطين آل عثمان على هذه الخطة ولم يحدثوا فيها تغييرًا يذكر الى زمن فتح القسطنطينيَّة

الدور الثاني عصر السلطان محمَّد الفاتح

لما فُتحت القسطنطينيَّة كان مضى على نظام الدولة العثمانيَّة الذي وضعهُ السلطان اورخان نحو مئة وخمسين سنة وقد تغيرت الاحوال كثيرًا في هذهِ المدَّة وزادت

الحاجات بمقتضى الناموس الطبيعي في ارتقاء النوع واتَّسعت المملكة وكثر اختلاط الامم المؤلفة منها فرأى السلطان مُحَمَّد الفاتح ان لا بدَّ من تنقيح القوانين وزيادتها بعد ان تمَّ لهُ ما كان يتوق اليهِ وهو ضم جميع مملكة الروم الشرقيَّة الى ممالكهِ والاستقرار بقاعدتها المنيعة . فاقتدى بجدهِ الاعلى اورخان واستعان بوزيرهِ محمود باشا على تنظيم شؤون الدولة وترقيتها فحوَّل ثمانيًا من كنائس القسطنطينيَّة الى مدارس وابقى لها اوقافها الاصليَّة لينفق ريعها عليها وبنى جامعهُ الشهير في وسط ثماني مدارس أُخرى سمَّاها بالتتمَّة وجعلهُ كعبة العلم التي تشدُّ اليهِ الرحال في تلك البلاد ولم يزل آهلاً عامرًا بالعلم والعلماء الى هذا اليوم فهو عند الترك بمثابة الجامع الازهر في القاهرة وجامع الزيتونة في تونس والقرويين في فاس . ولم يكن التعليم فيهِ قاصرًا على بعض العلوم والفنون كما هو الآن في اكثر الجهات بل كانت الدروس تلقى في جميع احتياجات الناس وما ينفعهم في دينهم ودنياهم فيخرج الطلبة منهُ مستوفين لشرائط التعليم ومؤهلين لادارة الاعمال فيكون منهم قواد الجيش والوزراء والمهندسون والاطباء والفقهاء والشعراء والادباء والمؤلفون. فان جميع رجال الدولة وكل من ابقى لهُ اسمًا في سجل ابنائها النافعين في ذلك العصر وما بعدهُ قد تخرَّج من هذهِ المدارس. وكانت شروط التحصيل فيها صعبة جدًّا كما هي الآن في اكبر المدارس الاوربيَّة . فيدخل الطالب اولاً الى المدارس الصغرى لتعلُّم العلوم الابتدائيَّة وينتقل الى مدارس الفاتح حيث يتحصل على العلوم العالية ويطلق عليهِ اسم «دانشمند» اي النبيه ثم يترقى بحسب جدهِ واجتهادهِ ومثابرتهِ على التحصيل الى ان يصير ملازمًا او معيدًا للدروس واما ان يكتفي بذلك وينتظم في سلك الائمة والخطباء ومدرسي المدارس الصغرى او انهُ يثابر على تحصيل العلوم الى ان يحوز منصب التدريس ويترقى في سلك الموالي والقضاة. وكان منصب التدريس من اعظم المناصب شأنًا وارفعها مقامًا لا ينالهُ الاَّ العلماء المحققون كما يدلُّ عليهِ اللقب الذي لم يزل يلقبون بهِ في العرائض الرسميَّة وهو «قدوة العلماء المحققين» وكان ينظر الى المدرس نظر المجتهد. وقد حكى جودت باشا في تاريخهِ انهُ «لما كان احد العلماء واسمهُ علي جمال الدين افندي في الحجاز وُجهت عليهِ مشيخة الاسلام فنصبوا لهُ وكيلاً من مدرسي صحن (اي مدرسة جامع الفاتح) الى حين مجيئهِ وهذا دليل على علو منزلتهم ورفعة شأنهم» قلت وحتى الآن يطلق على بعض كبار مدرسي الاستانة العليَّة لقب وكيل الدرس وذلك ان بعض السلاطين السالفين كالسلطان بايزيد الثاني وغيرهُ اشترطوا في اوقافهم ان بعض الدروس

الكبيرة يدرّسها شيخ الاسلام نفسهُ بصفة كونهِ اعلم اهل زمانهِ في البلد ثم لما تغيرت الاحوال وصار منصب المشيخة مرتبطاً بسياسة الدولة ومجلس الوكلاء اناب شيخ الاسلام عنهُ في الدرس وكيلاً لكي يتفرغ هو لشؤون منصبهِ. ومهما كان الامر فان جعل القاء الدرس من خصائص شيخ الاسلام دليل كبير على اعتناء السلاطين بالتدريس وتعظيمهم لشأنهِ ونظرهم الى من يباشرهُ نظر التكريم والاحترام. اما الدروس فكانت تعطى في فنون شتى كالنحو والصرف والمنطق والعقائد والكلام واللغة والانشاء والادب والمعاني والبيان والبديع والفقه والاصول والحساب والهندسة والفلك والرياضة بانواعها والحديث والتفسير. ولا ينتقل التلميذ من مدرسة الى اخرى ولا ينتظم في سلك معيدي الدرس الاَّ بعد الحصول على الشهادات اللازمة بكل دقة واعتناء ولا ينال درجة التدريس الاَّ من مشى عليهِ سبع سنين على الاقل في وظيفة المعيد

وكان السلطان محمَّد الفاتح عالماً اديباً شاعراً يناظر الشعراء ويراسلهم وقد اختص بهِ ثلاثين شاعراً لازموهُ مدة ملكهِ واتخذ لنفسهِ اسم « عرفي » يوقع بهِ على انشاءاتهِ حتى يسهل على مناظريهِ طرق المناظرة ولا يهابون مقامهُ العالي وسطوتهُ الساطعة ولا يخفى ما في هذهِ الطريقة من لطف الطبع ودقة الذوق. وكان يكرم العلماء ويكثر لهم العطاء ولم يقتصر على علماء مملكتهِ بل كان يواصل بعض الاجانب حتى انهُ كان مرتباً لملا نور الدين عبد الرحمن بن احمد الجامي شارح كافية ابن الحاجب في النحو مبلغ الف محبوب ومثلها للشاعر الفارسي خواجه جهان صاحب (مناظرة الانشاء) بالفارسي يرسلها اليهما كل سنة الى محل اقامتهما الاول بخراسان والثاني بالهند. وقد راج سوق الادب في زمنهِ رواجاً واسعاً وظهر الادباء والشعراء في كل جهة من مملكتهِ ومن جملة مشاهيرهم شاعرة من قسطموني تعرف باسم زينب

واستمر هذا الحال في مدة خلفائهِ وقد سبقت الاشارة الى ما قررهُ ابنهُ السلطان بايزيد الثاني من حيث التدريس في جامعهِ مما يدل على اعتنائهِ بالعلم وترفيع شانهِ ونزيد على ذلك ان حفيدهُ السلطان ياوز سليم الاول كان مولعاً بالشعر والادب والاطلاع على جملة لغات فكان ينظم بالتركية والفارسية النظم الرائق ويتكلم بالعربية الفصيحة وقد وُجد على جدار الحجرة التي اقام بها بجزيرة الروضة في منيل القاهرة بعد فتحهِ لمصر هذان البيتان مكتوبين بخط يدهِ وهما

المُلْك لله من يظفرْ بنيل منىً يردُدْهُ قسرًا ويضمنْ بعدهُ الدركا

لو كان لي او لغيري قدر انملة فوق التراب لكان الامر مشتركا

وتحتهما ما صورتهُ « وكتبهُ سليم » قال العلاَّمة القطبي « ولعمري ان كان هذان البيتان من نظم المرحوم فهما غاية في البراعة ونهاية التمكن في الصناعة فيدل على ملكتهِ رحمهُ الله في اللسان العربي ايضاً لانهما من اعلى طبقات الشعر العربي الفصيح البليغ المنسجم وان كان قد تمثل بهما وهما لغيرهِ فهذه رتبة عالية في حسن التمثل ولطف الاستحضار وفهم الاشعار العربيَّة وذوقهِ بها وهذا القدر يُستعظم ويستكثر على عظماء العجم المكبين على العلوم العربيَّة فضلاً عن سلاطينهم المشغولين بضبط الممالك وفتحها » (ستأتي البقيَّة)

اليد اليمنى واليد اليسرى

للباحثين عن علل المعلومات اسلوبان اسلوب الحدس المجرد واسلوب التجربة والامتحان ومعلوم ان الاسلوب الثاني اقوى على الاقناع ولا سيما اذا طال الاستقراء فيهِ وعليهِ المعوَّل الآن في جميع العلوم الطبيعيَّة وبهِ حُلَّت اكثر المسائل التي خبط المتقدمون فيها خبط عشواء. ومن المسائل الغامضة التي اختلف العلماء في تعليلها ولم يجمعوا على قول واحد فيها مسألة استعمال اليد اليمنى اكثر من اليسرى فترى اكثر الناس يعتمدون على يمناهم وقلَّ من يعتمد على يسراهُ. ومعلوم ان ذلك لا يحدث اتفاقاً اذ لو كان الاعتماد على اليد اليمنى واليسرى حادثاً بالاتفاق لوجب ان يكون نصف الناس عدًّا من المعتمدين على اليد اليمنى ونصفهم من المعتمدين على اليسرى والامر على غير ذلك فلا بد اذًا من داعٍ دعا الناس الى تفضيل اليمنى على اليسرى. وان قيل ان الوالدين يربون اولادهم على استعمال اليد الاولى دون الثانية قلنا ان هذا لا يحلُّ المسألة اذا صحَّ بل يحوّلها الى البحث عن علة تفضيل الوالدين لليمنى على اليسرى

واول من بحث في هذا الموضوع بحثًا استقرائيًّا مؤيدًا بالامتحان هو الاستاذ بلدون الاميركي استاذ السيكولوجيا (علم النفس) في مدرسة برنستن الجامعة وقد وقفنا لهُ على مقالة مسهبة في جريدة العلم العام ذكر فيها انهُ جرَّب التجارب التالية في ابنتهِ من حين كان عمرها اربعة اشهر الى ان بلغت الشهر العاشر من عمرها وكان يجلسها ويعري يديها ويضع امامها شيئاً تمد يدها اليهِ لتمسكهُ ويراقب عدد المرات التي تمد فيها اليد اليمنى